دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، صيف ۱۳۹۲، العدد الثامن عشر، صص ۱۱۱- ۱۲۶

الوصف فی شعر خلیل مردم بک

مهدی ممتحن*
عزیزة رحیمی**

تاریخ الوصول: ۹۱/۱۲/۲۵
تاریخ القبول: ۹۲/۳/۱۹

الملخص

الشاعر *خلیل مردم بک* نموذجاً رائعا من رجال البیان لصدر هذا العصر فی أدبه ونتاجاته، رفع اسم بلاده عالیا، وناضل فی سبیلها کل حیاته. فقد کان من الأوائل الذین استساغوا الادب الضخم والعبارة الفخمة والشعر المتین، وأفاد منه، فکان صلة الوصل بین القدیم والحدیث، مال إلی الوصف، جمع أطایب القول وأحاسن الصور، وعرضها فی أجمل ثوب وأحسن حلی، وقاسی فی سبیل ذلک ما لا یقاسیه جیلنا من فقد المصادر، وندرة الخزائن، وقلة الثقافة، وضآلة التعلیم، وجفافا لینابیع. فهذا المقال دراسة حول حیاة الشاعر *خلیل مردم بک* ومیله إلی الوصف والطبیعة والفن، وجولة قلیلة فی شعره القومی والمصدر المهم هو دیوان الشاعر.

الکلمات الرئیسیة: الأدب، الوصف، خلیل مردم بک، الوطنیة.

* عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت(أستاذ مشارک). Dr.momtahen@gmail.com
** طالبة الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة وآدابها بجامعة آزاد الإسلامیة فی آبادان. rahimiazize@yahoo.com
الکاتب المسؤول: عزیزة رحیمی

المقدمة

الشاعر *خليل مردم بک* هو النّحلة الدّمشقية التی خرجت إلی الحياة، تشمّ رحيق العلوم والآداب، تغرق فيه، لتحمل إلی العالم جمال وشهد العلم والأدب، شهدٌ مَن يتذوّقه لن يجوع أبداً. لم تحتكر رحيق العلم والأدب لنفسها، بل كانت تدور، وترقص لتدلّ باقی أفراد الخليّة علی الرّحيق، علّ باقی النّحل يحذو حذوه.

العلامة خليل مردم بک شاعر دمشقی، ولد فی دمشق عام ١٨٩٥، لأب هو *أحمد مختار مردم بک*، و*أم هی فاطمة محمود الحمزاوی*(مفتی دمشق وعلامتها)، من عائلة مردم بک الثرية والعريقة فی الوجاهة، تهتمّ بالأدب والسياسة، ولم يكن له أخوة من الذكور، وإنما كان له خمس شقيقات.

تلقی دراسته الأولی فی الكتّاب وهو فی سن السابعة، ولما بلغ العاشرة دخل مدرسة «الملک الظاهر» الابتدائية الرسمية وأمضی فيها ثلاث سنوات، ثم انتقل إلی المدرسة الإعدادية الرسمية حيث مكث فيها سنة واحدة. فقد أباه فی الخامسة عشرة من عمره. وبعد أربع سنوات فقد أمّه، فنشأ يتيماً فاقد الحنان يسير بين اشواک الدنيا حذرا قلقا مترددا، وكأنّ المصيبة طبعته بطابع الصمت والحذر والسكون، والابتعاد عن المجتمع، غير أن يتمه عصمه عن مفاسد أبناء اليسار. درس طرفا من الحديث الشريف علی المحدث *الشيخ بدر الدين الحسنی* وتعلم الفقه علی *الشيخ عطا الكسم* مفتی الشام، ودروسا فی الصرف والنحو علی *الشيخ عبد القادر الإسكندرانی* وأخذ يقرض الشعر فی سن مبكرة، ويطالع فی الكتب الأدبية معتمداً علی نفسه. بدأ بالكتابة فی سن مبكرة وكان أول إنتاج له «جمهرة المغنين».

ولما جلا الأتراک عن دمشق أواخر سنة ١٩١٨ وقامت الحكومة العربية، فعُيّن *خليل* مردم مميّزاً لديوان الرّسائل العامة، ويمارس الوظيفة مترقيا فی مراتبها حتی اواخر سنة ١٩١٩، وقد شهد خلال هذه الحقبة تاريخا جديدا للامة العربية فاهتزّ قلبه للأمجاد، وتفتحت نفسه للمناصب، وتغنی بأن رأی أُمته تنشئ الحياة وتبنی العز من جديد بعد ركود طويل. فآمن بعروبته فمال قلبه إلی الشعر الوطنی، وتغنی لسانه باستقلال العرب. وبعد أن دخل الجيش الفرنسی دمشق، صرف من العمل فی الحكومة، وقد طارده الاستعمار الفرنسی فهاجر إلی لبنان، ثم الإسكندرية، وهناک التقی بأعلام الفكر والأدب،

ثمّ سافر إلى إنجلترا وانتسب إلى جامعة لندن، وحصل على شهادة، ثـم عـاد إلـى دمشـق وتغلغل فی قلبه کرههم، وعشق الشعر المهجری، وأسّس مع صحبه "الرابطة الادبية"، ثـم أنشأت الرابطة مجلة باسمها «مجلة الرابطة الادبية» وضمّت الرابطة حينها نخبة من رجال الفكر والأدب وجميعهم انتخبوا *مردم بک* رئيساً للرابطة.

وفی هذه المجلة نشر الفقيد شعراً ودراسات، وكان الشعر فـی الغـزل، وشـعره مشـبوبة العاطفة تمثل الشاب فی هذا السن، وسالت فی دروب أشعار *البحتری* و*ابن المعتز* وقصـائد العذريين، فقد سلک *خليل مردم بک* فی حب الشعر القديم والتراث الخالد.

وفی عام ۱۹۲۵ انتخب عضواً فی المجمع العلمی العربی، وقدّم رسالة بعنـوان «شـعراء الشام فی القرن الثالث الهجری»، وفی هذا العام اندلعت الثورة السورية فأخذ ينشر قصائده الوطنية لرفع الظلم والطغيان فهاجمته السلطات الفرنسية؛ فغادر دمشق إلى لبنان واستقرّ فی قرية "المروج" وبقی فيها ثلاث سنوات بعدها عام إلى دمشق عام ۱۹۲۹ ولمـا علمـوا بوجوده سافر إلى الإسكندرية عام ۱۹۲۶ وبعد أربعة أشـهر غـادر الإسـكندرية إلـى لنـدن لدراسة اللغة الإنكليزية وآدابها فی جامعة لندن، وأمضی فيها ثلاث سنوات عاد إلى دمشق عام ۱۹۵۹ وعيّن مساعداً لرئيس الأدب العربی فی الكلية العلمية الوطنية أمضی فيها تسع سنوات(۱۹۲۹ ـ ۱۹۳۸).

وخلال هذه السنوات راح الرجل يؤلف الدراسات الادبية ويترجم لفحول الادباء القدماء، فأصدر عددا من الكتـب جعلهـا بعنـوان «أئمـة الأدب» ونشـر منهـا خمسـة أجـزاء هـی: «الجاحظ، وابن المقفع، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والفرزدق» ووضع النشيد الوطنی لسورية عام ۱۹۳۶. وفی عام ۱۹۳۳ أسّس مع الأدباء مجلة «الثقافة». وفی عام ۱۹۵۳ بعد أن طارت شهرته فی الافق، عيّن وزيراً للخارجية السورية وفی نفس السنة انتخبه المجمع العلمی العربی رئيساً له وانصرف إلى الاهتمام بشؤون المجمـع وتشـجيع المـؤلفين وبقـی رئيساً حتى وفاته عام ۱۹۵۹.

كان *خليل* فانتخبه مجمع اللغة العربية فی مصر عضواً عـام ۱۹۴۸، والمجمـع العلمـی العراقی عضواً عام ۱۹۴۹، ومدرسة الدراسـات الشـرقية بلنـدن عضـواً عـام ۱۹۵۱، ودائـرة المعارف الإسلامية للمستشرقين عضواً فی تحريرها ۱۹۵۱، ومجمع البحـر المتوسـط فـی بالرمو بإيطاليا عضواً عام ۱۹۵۲، والمجمع العلمی السوفييتی عضـواً عـامً ۱۹۵۸. فـی عـام

۱۹۵۱ عين وزيراً مفوضاً فی السفارة السورية ببغداد، فتحولت السفارة خلال السنوات الثلاث التی قضاها هناک إلی منتدی أدبی للطبقة العالية من رجال الفكر والسياسة والأدب، وكتب ۱۵۳ قصيدة وبلغ مجموع أبياتها ۳۴۶۷ بيتاً وتوزعت هذه القصائد علی الوطن والقومية والاجتماعيات والمراثی والإخوانيات والنسيب.

كان يستقبل فی منزله كبار رجال الفكر والأدب فی سورية والبلاد العربية كما استقبل الشاعر *أحمد شوقی* الذی زار دمشق عام ۱۹۲۴، والشاعر *جميل صدقی الزهاوی* و*معروف الرصافی* و*خليل مطران* و*بشارة الخوری* و*إيليا أبو ماضی* و*أحمد حسن الزيات* و*إبراهيم عبدالقادر المازنی* و*محمود تيمور* و*زكی مبارک* وغيرهم.

يقول عنه *سامی الدهان*: «كان صلة الوصل بين القديم والحديث، جمع أطايب القول وأحاسيس الصور، وعرضها فی أجمل ثوب وأحسن حلی»، ويقول عنه *جميل صليبا*: «أبواب شعره علی كثرته قليلة، طغی عليها باب الوصف فی الطبيعة والفن. إن قصائده كثيرة فی الحماسة الوطنية ... ولقد اهتم الخليل بالشعور القومی والشعور الإنسانی وعمل علی إصلاح حياة الإنسان». ويشار إلی قصائده فی الحنين إل دمشق، والتفجع علی فراقها وذكر ما فيها من مسارح صباه ومعاهد أنسه.

توفی الشاعر العظيم *خليل مردم بک* فی دمشق، فی ۲۱ تموز ۱۹۵۹، وبقيت شلالات شعره ورذاذها، تبلّل شجر الياسمين، النّوافذ، الأحياء العتيقة، والشّرفات الخشبية الدّمشقية، شلاّلات تعشق الصّعود إلی العلا.

أدبه وانجازاته

علی الرغم من انصرافه إلی الأعمال الإدارية والدبلوماسية فی وزارتی المعارف والخارجية، والمجمع العلمی العربی الذی ظل رئيساً له مدة سبع سنوات، فإنه ترک لنا ثلاثة وعشرين كتاباً بين مؤلف ومحقق لم ير النور منها فی حياته إلا كتاب «شعراء الشام فی القرن الثالث الهجری» وسلسلة «أئمة الأدب»، ودواوين «ابن عنين، وابن الجهيم، وابن حيوس، وابن الخياط»، التی قام بتحقيقها. أما الكتب الأخری فقد بقيت مخطوطة، إلی أن قام نجله *الوحيد عدنان* بإصدارها تباعاً بعد وفاته، كذلک أصدر له المجمع كتاب «جمهرة المغنين» وكتاب «الأعرابيات».

خلیل مردم بك المحافظ التقلیدی

خلیل مردم بک فهو مثال واضح للأدیب العربی المحافظ التقلیدی. یستمد من الأدب العربی القدیم ـ نثره وشعره ـ نسغ شاعریته، وعناصر طریقته الشعریة، ولم یتأثر بأی ثقافة اجنبیة ولا یعجب بلغاتهم و آدابهم، فهو منذ سنة ۱۹۴۶، أصبح یحیی حیاة جدیدة أحبها منذ صباه، و هی العکوف علی المصادر القدیمة، وأحیاء الشعر الشامی یترنم به ویتغنّی، فقد سلک الشاب فی حب الشعر القدیم و الخالد و یبحث و ینقب، حتی عرف کل حی من أحیاء دمشق فی قدیمة وحدیثة، وأتقن کل لفظة دمشقیة جاءت إلی لسان الشعراء قبله. فإذن ظلّ طلب العلم والتثقیف الذاتی یلازمان الخلیل طوال سنی حیاته، وقد أتاح له فراغه ویسره المادی أن یترک نفسه علی هواها، وأن یتقطع للأدب، متنقلاً بین التراث القدیم، وکان ینقل ما یستحسنه فی دفاتر خاصة، تکونت عنده عدة مجموعات کما أشرنا لهم من قبل.

خلیل مردم بك وتأثره بالبحتری

تأثر *خلیل مردم بک* وأعجب *بالبحتری* إلی حد بعید. قد یؤکد الباحث فتوح أنّ الشاعر *خلیل* کان متتبعاً ومعجباً بشعر *البحتری* کان فی نظره مقیاساً للجودة إضافة الی أن کان زعیم الطریقة الشامیة التی تقوم علی الوصف أولاً، ولأنّ اسلوبه یقوم علی العنایة بالموسیقی وإحکام الصنعة والاهتمام باللفظ دون الغوص بالمعانی المتکبرة والأفکار المخترعة، وقد سأله الشاعر *حافظ إبراهیم* مرة: من تفضل من الشعراء؟ *أبا تمام*، *البحتری*، أو *المتنبی*؟ فأجاب دون تردد: *البحتری*، لاسیّما فی الوصف القائم علی إشتراک النظر والسمع والوعی والحس.

فقد أولع *خلیل* بالوصف والتشخیص والإحیاء وبعث الحیاة فی الإنسان والنبات والجماد، وأنه لا یوجد شاعر وصف غوطة دمشق کما وصفهاالشاعر *خلیل*، حیث صور ریاض الغوطة وجداولها وأزاهیرها والأطیار والیاسمین الدمشقی تصویراً دقیقاً مفعما بأحاسیس اللفظ والاشتیاق، ویحنّ الیها حنین العاشق الی معشوقه من خلال الوصف الجمیل لهذه البیعة والطبیعة الخلابة. کما فی قصیدته «الغوطة» التی یقول فیها:

عَرِقَتْ جباهُ الزَّهْرِ مِنْ قَطْرِالنّدی مُلْتَفّةُ الأعناقِ ذات تآطرِ

وأرى الغُصونَ كَأَذْرعٍ مَمْـــــــــدودَةٍ　　قُطيـــعُ أكْبـــــادٍ وَشَــــقٌّ مَرائِــــرِ
والـــزَّهْرُ يَلْقـــــانى بِثَغْرٍ باسِـــــمٍ　　وبَوَجْنَـــــةٍ حَمْـــــرا وجفْـــنٍ فـــاتِرِ
وَشَــقائِقُ النُعْمـــانِ فـــى قيعانِـــها　　لِتَــعانُقٍ مِـــنْ بَعْدِ طــــــــولِ تهـاجرِ

الوصف فى شعره

كما سبق القول يقول عنه جميل *صليبا* فى الوصف أن ابواب شعره على كثرتـه قليلـة طغى عليها باب الوصف فى الطبيعة والفن، إن إحساسه المرهف لا يريـه فـى الطبيعـة إلا الالوان الجميلة والألحان العذبة والحركات اللطيفة، *فخليل* مردم يحدثنا فى شعره الوصفى عن أزاهير الرياض، وألوانها، والسحاب الماطر، والطيور الصـداحة، ورقـص الأغصـان، وحبْـو امواج البحار، ودخان السحب فوق شعلة الشمس، ورحلة الشمس، وغدران المائرة، ويعرض على الصخور الصماء، والبراكين الثـائرة، والجبـال الشـاهقة، والصـحارى السـاكنة والزلـزال الهوجاء.

فى قصيدته «الغوطة» يقف الشاعر امام الطبيعة وقفـة المسـحور، يعاطيهـا أحاسيسـه وتعاطيه صورها، ولا يصورها إلاّ بعد أن يغمس ريشته فى مواد قلبه فكأنها مرآة أحلامـه، ومرتع صبوته وهوى فؤاده ومتعة ناظره أى كأنّها صورة من صور نفسه كما يقول:

مرآةُ أحْلامــى ومَرتــع صَـبْوَتى　　وهَوى فؤادى بَلْ ومتْعَـةُ نـاظرى

ويشبّه صور الطبيعة بآثار النفس الإنسانية، فللزهر مقلة وسنى، وخدّ ناضر، وثغر باسـم، وجفن حائر، وللغصون أذرع ممدودة للتعانق:

والزَّهْـــرُ يَلْقـــانى بِثَغْـــرٍ باسِـــمٍ　　وبَوَجْنَـــةٍ حَمْــرا وجفْـــنٍ فـــاتِرِ
وأرى الغُصــونَ كَــأذْرعٍ مَمْـدودَةٍ　　لِتَعـانُقٍ مِــنْ بَعْـدِ طـولِ تهـاجرِ

وجبين يعرق ويرشح كما يرشح جبين البكر حياءً:

عَرِقَتْ جباهُ الزهـرِ من قَطْـرِ النّـدى　　مُلْتَفَّـــــةِ الأعْنـــــاقِ ذات تـــــآطرِ
كَــالْبِكْرِ يرشَــحُ لِلْحَيـــاءِ جَبينُهـــا　　عرقـــاً إذا ضُـــمَّتْ لِصـــدرِ الهاصِـــرِ

كما أشرنا أن الشاعر *خليل مردم بک* شاعر لطيف النفس و مرهف الإحساس، و أجمـل الفصول عنده فصل الربيع، لأنّه الطف الفصول السنة، و فـى شـعره ذات مكانـة عاليـة لأنّ نفسه تعشق الطبيعة الجميلة، و يقول فى وصف الربيع:

قــَدْ صَـفَتْ لَنــا الْحقـبُ واحْتمـــى بِنـــا الطَـــربُ
فالريــــــاض باســـــــمة إنّ ثوبهـــــــا قشـــــــب
والسَّمــــــاءُ بـاكِيـــــَةٌ إنَّ دَمـْعَـهـــــا ســـــربُ
ترتـــــــدی الحَـــدادَ وَإِنَّ رِداءَهـــــا السحـــــــبُ
إنَّ رعـــــدَها کَثـُـــــکا لـــى تَصـــيحُ تنتحـــبُ
إنَّ بَرْقـــــَها وَمْــــــضٌ کَـالسّـــــعيرِ يَلْتـــَهِبُ

والشاعر کذلک فی هذه القصيدة يعامل الطبيعة معاملة انسان لـه روح وجسـم يلـبس، ويضحک، ويبکی... .

فهو کما سبق القول(فی قصيدة الغوطة) يحب التجول من واد إلی واد، وفی قصيدة لـه عنوانها «بردی» نری مرة ثانية تجول الشاعر، ويصـف الشـاعر النهـر ويطـوف بواديـه مـن منبعه إلی مصبه عدة مرات، فکان يری إنسرابه واستدارة مجاريه، ويسـمع غمغمـة النهـر، وهزجه وترنيمه وقوله فی ذلک:

يُريــک فــی جَرْيــه مِــنْ مائِــه صُــوَراً تَبْــدو عَلَــی ثَــبَجٍ مِنْــه وضَحْضــاحِ
مــا بَــيْنَ منْسَــرِبٍ أوْ مزبـدٍ لجــــب أوْ مُسْــتدَير کَظَهْــرِ التَّــرْسِ مِنْــــداحِ
إذا تَمَـــــوَّجَ مختــالاً بِجَرْيَتِـــــــه عجبــــتَ مِــنْ قــابِضٍ کفــاً ومِــنْ داحِ
مــا مَـــــرَّ فــی بُقْعَــةٍ إلّــا وخاطَبَهــا طَــوْراً بِغَمْغَمَــةٍ طَــوْراً بِإِفْصـــــــاحِ
فــی کُــلِّ مَرْحَلـةٍ لَحْـنٌ فَمِـنْ هَـزَجٍ إلـــی هَديرٍ إلــــی تَرْنيـــــمِ نَــوّاحِ

فانتزع خليل من ذلک کله صوراً حسية مزجها بأحلام قلبه ورؤيا نفسه.

تأثير الحواس فی شعره الوصفی

القارئ لشعر *خليل* فی الوصف يشاهد أن جميع الحواس لها تأثيراً فی شعر الشاعر فـی الوصف، لکنّ حواس البصر والسمع والشم لهم أعظم تاثيراً من بـاقی الحـواس فـی شـعره، بالأخص حاسّتا البصر والسمع لأنّهما أدقّ الحـواس، ولأنّهمـا تکشـفان عمـا فـی الأشـکال والحرکات والالوان من توازن واتساق وانسجام:

أثر حاسة السمع فی شعر خليل

والدليل على ذلک أنه إذا وصف الطير، أسمعنا تغريد الطير وسجعه، كأننا نسمع الحمائم تهدر وتنوح كالثواكل، ونحسّ بتفجعها وهتافها وبكائها، كأنّ سجعها نوح الحزين، وكأن غزلها وتهدارها صوت زامر ينوخ فی الرقص، وقوله فی ذلک يصف "الورقاء":

وَرْقــاءُ ذاتُ تفجُّــعِ　　　هَتَفَتْ فَفاضَتْ أدْمُعی

ومن قوله فی وصف "بردی":

ما مَــرَّ فی بُقْعَةٍ إلّا وخاطَبَها　　　طَــوْراً بِغَمْغَمَــةٍ طَــوْراً بِإفْصاحِ

وفی وصف ال"قاسيون":

تَرَنَّحوا وَتَغَنّوا فی عِبادَتِه　　　كَما تَرَنَّحَ عِنْدَ النَّشْوَةِ الحاسی

تاثير حاسة البصر فی شعره

ومما يدل على أثر حاسة البصر فی شعره الوصفی، وصف الشمس، حيث يشبهه احمرارها عند شروقها بشعلة نار علاها سحاب من الدخان:

أمْ تَــراها شُعْلَةً و السُّحُبُ مِــنْ　　　فَــوْقِها مِثْل دُخانٍ قَــدْ عَلاها

فإذا بدت فی السماء عارية اعشی سناها كل ناظر:

فَبَــدَتْ عارِيَــةٌ حــالِيَــةٌ　　　فَــإذا وَضــاءَةٌ يَعْشــی سَناهــا

ومسح نورها دموع الليل عن وجنة الأزهار، ولج فی تقبيلها حتى تحمر خدودها كما تحمر خدود العاشقين فيقول مردم:

مَسَحَ النّورُ دُموعَ الليلِ عَنْ　　　وَجْنَةِ الأزْهارِ إذْ قَبَّلَ فاها

لَــجَّ فــی تَقّبيلِها مُسْتَهْتِراً　　　فيهِ فَاحْمَرَّتْ خُدوداً وَ شفاها

وكذلک فی قوله مما يدلّ على تأثير حاسة البصر هو وصف "الزهر". يأتی فی وصفه بصور متميزة، مثلاً فی وصف "الزنبق" فشبه الزنبقة بخود شمرت عن ساقها لتستقی الماء:

وَكَأنّها فی الماءِ خودٌ شَمَّرَتْ　　　عَنْ ساقِها عِنْد الوُرودِ لِتَسْتَقی

أو يشبه الزنبقة بعذراء وضاءة الجبين تسربلت بغلالة من استبرق، فكأنّ الزهرة فی نظره فراشة بيضاء، وكأنّ أطباقها أنامل أو جفون طويلة الأهداب وقوله:

عـــذْراءُ تَستَهْوی العُیـونَ بِطَلْعَـة   وَضّــاءَةٍ بَیْضــاءَ کــالعرْضِ النّقــی
تَخْتالُ مِــنْ زَهوِ الصِّبا فـی میْعَـةٍ   وَمِـــنَ الشَّــبابِ وحُسْـنِه فـی رَیِّـقِ
فکأنّهـــا بِبَیاضِـــها وسَنـــائِها   بَرَزَتْ إلیْک مِـــنَ الضّحی فی رَوْنـقِ
وتَسَــرْبلتْ بغـــلالةٍ وبِـــــریطَةٍ   مِـنْ سُـندسٍ خَضـرٍ ومِـن اسْـتبرَقِ
کــم زهْـرةٍ رَفَّـتْ فَخَلـت فراشـةً   بَیْضــــاءَ رفَّ جناحُـــــها بترفـــقِ

ومثل ذلک کثیر فی شعره، والقارئ حین یقـرأ شـعاره ولاسـیما فـی الوصـف یلاحـظ ویلمس أن آثر حاسة البصر أقوی من السمع، ونری أن وصفه لتغرید الطیر أقل من وصفه لألوانه. *خلیل* مردم أعجب بإنسجام الحرکات إعجابه بانسـجام الألـوان والأصـوات، فوصـف حرکات الراقصین ورقص الأغصان، ورفرفة الطیر وکرّه وفرّه، وذبذبة ذیله، وتـدویم الفـراش صعودا وهبوطا، وانطلاقه وتزاحمه فی الفضاء، کـأنّ الطیـر وهـو یضـرب بأجنحـة النسـائم راقص یرسم بحرکاته الألحان فیوحد صور السمع و البصر و یمزجها بعضـها بـبعض، فمـن قوله فی وصف حرکات الفراشتین:

أفـــانینٌ مِـــنَ الحَرکـــاتِ زاغَـــتْ   لــها عینی وَعــــــیٌّ بهـا بَیانــــی
فمِنْ ضَــــمٍّ إلــــی نَشرٍ لوثـبٍ   لرفرفـــةٍ إلـــی حــــربٍ عَــــوانِ
تَحیَّرَتـــا هنـــا وَهنـــاک طیشـاً   کمــا فـــی الـرّیح حـارَتْ ریشَـتانِ
اذا مــــا هَبَتـــا لِبلـــوغِ قَصْـــــدٍ   بــــدا لَهـــا فَوُجِّهَتـــا لثــــانِ
وإنْ إحْـــداهُما انْطَلَقـتْ فَجَـــدَّتْ   بِمتْنِ الـــرّیحِ مطلقـةَ المنــــــانِ

تاثیر حاسّة الشّم فی شعره

کان *خلیل* مردم بک یحبّ روائح دمشق ویشعر عن شمّها بنشوة تدبّ فی قلبه، مـثلاً: لقد أعطته الغوطة کل شئ ما یودّه ویتمناه، أعطته الأحاسیس والمشاعر التـی صـاغ فیهـا الصور، أعطته الصور الحسیة التی أثرت فی خیاله، لکن اثر حاسة الشم فی شعره أقل مـن حاسّتا الشم والبصر، أما قوله فی ذلک یصف "الروائح الطیبة":

یـا عجبـاً لطیـف ریـحِ التـرْبِ   إذا تَنَـــدّی بِـــدموعِ السُــحْبِ
أکــان مِـــنْ تحیَّـــةِ الغَمـــامِ   طَیّبــةِ الــی التّــراب الظّــامی
ام تلک أنْفـاسُ الثّـری ذَکیــّة   تشــــکُرُ لمّـــا ردّتْ التّحیّـــة

و نَفْحـةٍ فـی (دُمّـرٍ) و (الرّبْـوَه) فَوّاحـةٍ لهـا دَبيـبُ النشـوة
دقّتْ علی الأوصـافِ و الأسـماءِ لكنَّهـا رائِحَـةُ (الفَيْحـاءِ)

ومن قوله:

عَبَقتْ فـی الكأسِ أنْفـاسِها نَفْحَةٌ تهـدی إلـی النَّـدْمانِ روحـاً

ميزات شعره الوصفی

اذا تتبّعنا الشاعر فی وصفه لنری أنّ ليس مهم له أن ينتزع صوره من الطبيعة، المهـم للشاعر أنّه كيف يعبّر عن الطبيعة، بشكل دقيق حيث يجمع بين متانة الاسـلوب وعذوبـة المعنی وسهولة اللفظ. فقصائده تشبه بعضه بعضاً فی قوة التعبيـر وجزالـة المعنـی، ودقّـة التشبيه.

قيل له مرة أنک تكثر من وصف الصور الحسية ولا تصف شيئا من الصور النفسية التـی تختلج فی صدرک؟ فقال: إنّی لا أصور الحسية إلاّ لأنّها رموز تعبر عن رؤی قلبـی وأحـلام نفسی، فهو إذن لا يتفنّن فی فی وصف الصور الحسية إلا ليطـلّ مـن خلالهـا علـی صـور نفسه، و الدليل علی ذلک، أنّه كان يضمن وصفه الحسی كثيراً من الشوق والحنين، كقوله فی وصف الغوطة:

مـرآةُ أحْلامـی ومَرتـع صَـبْوَتی وهَـوی فـؤادی بَـلْ ومِتْعَـةُ نـاظری
فی كلّ مغنی مِنْ فـؤادی شُـعبةٌ وبكلِّ وادٍ هـائمٍ مِـنْ خـاطِری

فی وصف البحر

كما سبق القول كـان *خليـل* يتخـذ الصـور الحسـية وسـيلة رمزيـة للتعبيـر عـن رؤاه وأحلامه، ويمكن القول أنّ هذه هی الميزة الاولی شـعر *خليـل مـردم بـک* ونشـاهد هـذه الميزة فی قصيدته «يا ليتنی» التی ترمز اليه صورة الحسية من معان عقليـة، فقولـه فـی ذلک، يتكلم علی نفسه:

ياليتنی لمـا شـربت الكأس صـرفا لـم أثـن
أو ليتنی لمـا انتشيت من المدامة لـم أغـن

أو أنــنی لــمــا ارتویت ترکت شیــئا للتـمنی

بل لیتنی لمـا سمعت بل لیتــنی لما شـمعت

أو لیتنی لما انتقل فی الروض من غصن لغصن

نلاحظ فی هذه الأبیات تلک المیزة بشـکل دقیـق وملمـوس، ولـه فـی قصـیدة ثانیـة عنوانها «قالت لی السمراء» ففیهـا یصـف الشـاعر شـروق الشـمس فـوق البحـر مـن وراء السحاب فی یوم مطیر، هبت فیة الریاح الهوج وطغت أمواجه و قصف رعـده وومـض برقـه فیصور الوان الافق بعد الصحو وأشباح السحب وأشلاها المتناثر فی السماء ویردد "ما قالت له السمراء ما بین السطور".

إذن أثرت الطبیعة فی خیاله فأفاض علیها صـوراً نفسـیة صـبها فـی الألفـاظ الجمیلـة وصاغها کما یصوغ الخراف الطین، فجاءت مفعمة سحرالجمال.

کان *خلیل* شاعر لطیف الإحساس وأن احساسه المرهف لایریه فی الطبیعة إلا الألـوان الجمیلة والإحسان العذبة، کما أشرنا أن *خلیل* هو یحـب الطبیعـة الجمیلـة ویبتعـد عـن وصف الطبیعة المخیفة، حیث اذا یصف البحر علی شدته وقسوته، فمرد ذلـک إلـی لیونـة البحر وحرکاته الجمیلة، إذن *خلیل* یعبر عن الإحساس الجمیل باللفظ الجمیل ولا یبتعـد عن الصور والألفاظ القبیحة والتافهة، ففی قصیدة عنوانها "الجمال"، یـأتی الشـاعر بوصـف الجمال بأنّها مرآة ینعکس علیها نور وجه الله حیث یقول:

ومـــــــرآةٌ علیْهـــــا نـــــو	رُ وَجــــــْهِ اللهِ یَنْعَــــــکِسُ
فمـــــــا أدری أظِــــــلٌّ اللهِ	أمْ مِـــــنْ نــــــورِه قـــــبسُ
بــدا کـــالشمس لکــن سـر	ه عیـــــت بـــــه النــــطس

إنّه یلمع الجمال من وراء الصور الحسیة فیبصر ألوانه بعینه ویسمع ألحانه بأذنیه ولکنه لایستطیع أن یحده بما یری ویسمع، لأنّ هذه الأغـراض الحسـیة زائلـة وجـوهر الجمـال خالد. *خلیل* یلمح الجمال بومض البرق، ویسـمعه مـن الأطیـار والأنهـار، ویدرکـه بنفسـه وینفی الجمال النوم من عینه وهو بعینها نعس، وفی الآخر یقول: وهو معنی ماهو به لبس، ومن قوله فی وصف الجمال:

یطل علی من عین الحبیب ولحظه خلس

فینفی النوم عن عینی وهــــو بعینها نعس

ويجرى ماءه فى وجهها فيكـــــاد ينبجس

ويذكو عرفه فى ثغرها مـــــا ردد النفس

ويزكو بين عطفيها هنـــك النيه والقمس

وألمحه بومـض البرق إما عسـعس الغـلس

وأسـمعه من الاطـيار والانـهار تـــرتجس

وأدركه بنفسى وهـــــو معنى مـــا لبس

ومن العجيب أن الريف البريطانى الساحر لم يستهوه، ولا حرک شاعريته، رغـم إقامتـه فيه عدة سنين، فليس فى ديوانه قصيدة واحدة تصور لندن وضواحيها الجميلـة، أو تصـور قصورها وحدائقها ومعالم حضارتها، ويرد *الدكتور جميل صليبا* ذلک إلى جو لندن القـاتم، وطغيان ضبابها، وكثرة ضجيجها.

جولة فى اجتماعيات ووطنيات خليل

اهتمام الشاعر *خليل* بوصـف الطبيعـة لـم يكـن أكثـر أهميـة مـن النـواحى القوميـة والإنسانية فى شعره، حيث كان يرى أن على الشاعر مسؤولية إنهاض قومه وإيقـاظ شـعبه من غفلته، إضافة إلى أنه رثى شهداء العروبة وتغنـى بالاسـتقلال ودعـا إلـى الثـورة علـى الاستعمار وتقديس الوحدة العربية الكبرى، وكان جامعـاً فـى شـعره الحماسـى كـل هـذه الأغراض، ولا يقل شعره الاجتماعى أهمية عن شعره الوطنى والقومى فقد دعا إلى إصـلاح الفساد الاجتماعى، وذم من يتمسک بالقشور من رجـال الـدين وانتقـد العـادات الفاسـدة، ونادى بالأخذ بما جاء فى الحضارة الغربية من قيم صالحة، وعطف على الأطفال الجـائعين كما فى قصيدته «اليتيم الجائع»، ولم يكن له شعر هزلى إلاّ قصـيدة واحـدة نظمهـا علـى طريقة *ابن الرومى* فى الإضحاک وتبيين المفارقات والعيوب.

خليل مردم بک يتلقى الوحى من سماء الخيال فيعى سرّ الوجود والعدم ويمثل الصـور العلويه بالألفاظ، فإذا شاهد احمرار الشمس قال هذا نجيع الشهداء، واذا سمع هزيم الرعـد قال هذا صراخ البائسين، فإن لم يكن صوغ القوافى سـجية، ولا يهـتم ببحـور الشـعر، لأنّ عنده ميزان الشعر هو الطبع، وسحره هو الالهام، فيقول:

اذا الشّـعر لـمْ ينفـثْ بِـه ربّـه السـحرا لَعَمْرو القَـوافى الغر ما فَقِـه الشعـــرا

فلَمْ يَبْق بَعدَ الـوَحْی مِـنْ نَبَـإِ السّـماءِ إلی الأَرْضِ غـيرُ الشّعرِ معجزةً كبْری
أری كُلَّ ميزانٍ سوی الطّبعِ فی الفَتـی لما يَزيـد الشـعر فـی وَزْنِـه خَسِـرا
فـإِنْ لـمْ يَكـنْ صَـوْغُ القـوافی سَـجِيةً فليس بِمَجْدٍ أنْ نَخـوضَ لهـا البَحْـرا

ومتی أدرک الشاعر هذه المنزلة من السحر غمرت نفسه الطبيعـه والمجتمـع، فتغنـی بالشعور القومی والشعور الانسانی معاً وعمل فی إصلاح حياه الانسان، لذلک اهـتم الشـاعر خليل مردم بک بالنواحی القومية والانسانية اهتمامه بوصف الطبيعة، وقوله:

إذا لـم ينبّـه شاعـر القـوم قومـه فذاک بأن يشـقی بـه قومـه أحـری
أری الشّـعْرَ أنْفاسـاً يُصَـرِّفُها الفتـی فيُطفی بِها جمراً ويُـذكی بِهـا جَمْـرا
وينفخهـا روحـا بميـت أمـة فتنسل مـن أجـداث غفلتهـا تتـری

يعتقد *خليل مردم بک* أن الشـاعر يحـب عليـه أن ينبـه قومـه ويـذكرهم بأمجـادهم ويـتطلعهم علـی نقائصـهم، وفضـل الشـاعر العربـی بـأن يرثـی شـهداء العروبـة، ويتغنـی بالاستقلال ويدعو الی الثورة علی الاستعمار والدعوة إلی الوحدة.

إذن *خليل* هو بنفسه بكی علی الشهداء:

يا دين قلبی مِـنْ يـومٍ وَری كَبـدی وطـالَ هَمّـی لِـذِكْراه وتِسْـهادی
فی ميلسون مـن الأشـجان سلسـلة نيطَـت بِأطْرافِهـا أرْجـاء أرْوادِ
هلْ مِنْ سَبيلٍ الی الإنْصافِ فی زَمَنٍ جَلَّـتْ رَزايـاهُ عـَنْ حصـرٍ وتِعْـدادِ

وقوله فی شهداء العرب:

مـاذا عليـهِ اذا عَصـاهُ لسـانُه الدمعُ أفْصَـح حـين َعـیَّ بَيانُـه
هذی الدموعُ قصيدةٌ جاءَتْ بِهـا للبـاذِلينَ دمـاءُهُم أجْفانُـه
اليومُ ذَكَّرْنا (الحُسـينَ) بكرْبـلا تبكـی علَيـه مجنـدلاً نسـوانِه

وفی الثورة السورية يقول:

مصـيبةُ ميلسـون وإِنْ أَمْضَـتْ أخـفُّ وَقيعـةٌ مِمّـا تَلاهـا
فمـا مِـنْ بقعـةٍ بِدِمَشْـقَ إلّـا تمثّـل ميلسـونَ ومـا دَهاهـا
فسـلْ عمّـا تصـبّبَ مـنْ دِمـاءٍ تخبّـركَ الحقيقـةَ (غوطتاهـا)
ولـم أر جنـه أمسـی بنوهـا وقـود النـار فـائرة سواهـا

ومن وله فی الوحدة:

فـيم التقـاطعُ والأرحـامُ واشـجةٌ والـدارُ جـامعةٌ والملتقـى أمَـمُ
الله فى قِطـعِ أرحـامٍ وَفصـمِ عـرى عهدى بها وهى ثقى ليس تنفصـمُ
قالوا وفى الدين بـونٌ دونَ وحـدَتِنا إلى متى باسم هذا الـدين نقتسـم

فى الابيات التى مرّت بنا يرد *خليل مردم* علـى الـذين يزعمـون أن اخـتلاف الأديـان يمتنع من تحقيق الوحدة العربية.

إذن هو ينتقد الذين شغلتهم السياسة المحلية عن المطالبة بالوحدة العربيـة الكبـرى، ويرى أنّ انضمام الشام إلى دول صـغيرة مخـالف لطبـائع الاشـياء، وأنّـه ينبغـى للقـائلين بالوحدة العربية أن يعملوا اولاً على توحيد أقاليمهم الصـغيرة فـإن الوحـدة لا تتجـزأ، وإذا تجزأت قصرت عن بلوغ غايتها، وإنّه لما يحزن القلب أن ترى كـل حاضـرة مـن الحواضـر العربية داراً لمملكة مستقلة، فما علينا لو اتخذنا جميعاً فى دولة عربية واحدة تضـم اجـزاء الوطن العربى كله، إذن نلاحظ أن الشاعر فى وطنياته كان يمشـى مـع اُمتـه، يعبّـر عـن منازعهم أحسن تعبير، كان يتألّم معهم، وتؤثّر فيه الأحداث التاريخية، فمـرّة يـتكلّم عـن الفتح العربى ويصفه، ومرة عن الوحدة العربية والدعوة إليها، وتارة يخاطب اللجنة الوطنيـة العليا.

قلنا أن شعره خالٍ من الهجاء إلاّ فى مواطن القدح على المستعمرين والإنحاء باللائمـة على المتصاغرين أمامهم، إذن أكثر وطنياته ترجع إلى أيام الدعوة إلى الوحدة والثورة ضد المستعمرين.

واجتماعياته متصلة بشعره الانسانى، كانت الحوادث العرب العالميـة الاولـى لهـا تـأثير شديد فى الشاعر والدليل على ذلک هو أشعاره وقصائده التـى وصـفها فـى الجـوع والفقـر والمـرض وشـكوى الـدهر، والظـالم المظلـوم، وشـكوى المحـزون، وصـوّر اغاسـة البـائس والمحزون واليتيم الجائع والولد الأعمى. من قوله فى الظالم المظلوم:

مازال يأكل من لحمى ويشـرب مـن دمعى ويـرتع فـى جلـدى بمخلبـه
حتـى إذا الـدّهرُ جـازاه بفِـعْلَته لمْ يبْق لى مدمـعاً أبكـى عليـه بـه

نتیجة البحث

کان *خلیل* نموذجاً رائعاً من رجال البیان لصدر هذا العصرفی أدبه، یلحق بکبار الادبـاء من الصوة المختارة، رفع اسم بلاده عالیاً، وقضی حقهاکاملاً، وناضل فی سبیلها کل حیاته، و غدا امثولة تحتذی وسیرة تقرأ، فقد کـان مـن الأوائـل الـذین استسـاغوا الأدب الضـخم والعبارة الفخمة والشعر المتین. عکف علی تراثنا الخالد، وأفـاد منـه. فخـدم الأدب العربـی خدمة لا تنسی، وکان صلة الواصل بین القدیم والحـدیث، جمـع أطایـب القـول وأحاسـن الصور، وعرضها فی أجمل ثوب وأحسن حلی.

المصادر والمراجع

آل جندی، أدهم. ۱۹۵۴، **أعلام الأدب والفن**، دمشق: مطبعة مجلة صوت:.

الجندی، أحمد. ۱۹۶۵، **شعراء سورية**، بيروت: دار الكتاب الجديد.

عياش، عبدالقادر. ۱۹۸۵، **معجم المؤلفين السوريين فی القرن العشرين**، دمشق: دار الفكر.

فرفور، محمد عبداللطيف. ۱۹۸۷، **أعلام دمشق فی القرن الرابع عشر الهجری**، دمشق: دار حسان- دار الملاح.

الكاتب حسان، بدر الدين. ۱۹۷۳، **الموسوعة الموجزة**، دمشق: مطابع الأديب.

كحالة، عمر رضا. ۱۹۹۳، **معجم المؤلفين**، بيروت: مؤسسة الرسالة.

مردم بک، خليل. ۱۹۸۰، **موسوعة الأعلام**، لا مكان: لا نا.

المقالات

خليلی، فاطمة. ۱۳۸۷ش، «**تطور القصة القصيرة فی سوريا منذ الثلاثينات حتی أواسط الأربعينات**»، فصليةدراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية فی جيرفت، السنة ۱، العدد ۲، صص ۵۳-۷۴.